

نفسه يصبح شبيهاً : « سنبله ذهبية » في حقل كوني مترع بالحبوب ، وهو سيثسدو في « جوقة اللانهاية » لان قلبه امتزج بالطبيعة ويتساقط عليه الندى . ان الهروب الى الطبيعة ، الى جانب انه هروب من الذات التاريخية المحددة ، هو أيضا هروب من العقل ومن التاريخ بل ومن الوعي سواء كان يهوديا ام انسانيا . يقول الشاعر في سلسلة أخرى من السوناتات تسمى « عن الدم » :

من الفخ الى الهاوية ، ومن الظلال الى الظلام نسقط ، مثل بقايا نيران خامدة .
تبارك بدنس لنستهد الوحي وبخفة نقفي على العقل ... ذلك الضوء الزائف .
الذي ينيم ارواحنا حتى تنسى آلامها ينميها بالفرح المترع ، وبهيميتي القيثارة ،
وبالحدود والقواعد والقوانين نصل الى نظريات متحضرة ، معقدة ولا حياة فيها .
فلنكن مثل الاطفال الصغار مرة أخرى
مثل قطرة في الفيضان ، أو تنهدات المروج ،
لا بحث ، ولا هدف ، ولا قاعدة ، ولا طغيان ،
مثلنا كنا في الايام القديمة ، قبل ان نتحكم
في الارض والفضياء ، قبل ان نصيب الحكمة ،
وقبل ان يرهقنا الانبياء .

ان العودة للطبيعة هي عودة للبراءة المطلقة ، براءة تجعل من الانسان طفلا ، بل قطرة في اللانهاية السائلة ، لا تمارس اي احساس بالذنب او بالتاريخ ولا تشعر بأي حدود .

تشرنخوفسكي اليهودي القبلي

ولكن ثمة نبرة يهودية متميزة في شعر تشرنخوفسكي تختلف اختلافا بينا عن النبرة المتهمدة « العلمانية » الوثنية ، ففي قصيدة « في احلامي » نجد انه يستخدم الاشكسالك الشعرية العبرية القديمة ، فالقصيدة هي اساسا نواح من اجل العودة الى صهيون ، وهذا موضوع تقليدي كتب عنه الشعراء العبريون منذ العصور الوسطى حتى منتصف القرن العشرين . في هذه القصيدة يسمع الشاعر في احد احلامه بلبلا يصدح في سكون الليل في فلسطين . ان الطائر يتغنى بالشعب الذي كان يقطن يوما ما هذه الارض ولكنه الان يجوب في اطراف الارض ومسالكها ، ويفغر الحزن قلب الشاعر ، بل ان البراعم والازهار والنخيل واشجار الزيتون تحزن هي الاخرى لشدو الطائر الحزين .

واحساس اليهودي بأنه منفصل عن الجوييم ، عدو لهم ، يتضح في قصيدة « فليكن هذا هو ثارنا » : يقول الشاعر في القصيدة ان اضطهاد الجوييم لليهود سيملؤهم بالدنس ، وسيفقدهم طهارتهم ، اذ « ان دم اليهود سيتخلل كيانهم حتى يسمم اساس وجودهم ذاته » ، والقصيدة تجسيد لحقد مسموم لا يمكن لاي انسان سوى فهمه او معرفة كنهه . وهي تعبير عن احساس بالالام لا يزيد صاحبه انسانية ، بل يعمق من كرهه وحقدده ، ولعل هذه الابيات توضح للقارئ بشكل ملموس تعميماتنا النقدية :

سيأتي اليوم (الذي تفقد فيه ايها المضطهد طهارتك) وتفرس حد سكينك في عنق أخيك ، ابن امك ،
كائك تدبج خنزيرك المفضل

في عيد القيام ، في الفناء او في ميدان القرية ،
وستكون رنين أنات موته مثل الموسيقى
أو المهرجان في اذنك المظلمتين .

يا يوم النار !

يوم ينتف ابئك شعر ذقتك التي علاها الشيب ،
ويرفع في وجبك قبضته الصلبة مهددا ،
وسيناديك من حنجرته الحيوانية :